اسم المقرر : النظام السياسي في الإسلام

ISLM 274

استاذ المقرر : أ.د بسام العطاوي

المحاضرة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

قواعد النظام السياسي الإسلامي

الشورى– الطاعة– العدل– الحرية

القاعدة الثانية : السمع والطاعة والتقيد بالأنظمة والقوانين:

انعقد إجماعُ أهل السنة والجماعة على وجوب السمع والطاعة للحاكم المسلم فيما يأمر به ومايصدره من أنظمة لاتخالف الشريعة .

والأدلة على ذلك كثيرة . قال تعالى :{ يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم } ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم :" من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع الأمير فقد أطاعني ، ومن يعص الأمير فقد عصاني " متفق عليه .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم :"عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك " رواه مسلم . وقال أيضا :" على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة " متفق عليه .

ولا يجوز طاعته فيما يأمر به من معصية الله ، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :" لاَ طَاعَةَ فِى مَعْصِيَةِ اللَّهِ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِى الْمَعْرُوفِ " متفق عليه .

"ولا يفهم من ذلك أنه إذا أمر بمعصية فلا يسمع له مطلقًا في كل أوامره ، بل يسمع له ويطاع مطلقًا إلا في المعصية فلا سَمع ولا طاعة.

حكم طاعة الحاكم المسلم الظالم :

- تَجب الطاعة للحاكم المسلم الظالم وإن منع حقوق الرعية ، تجب طاعته في غير معصية الله ؛ لأن عصيان الحاكم ومخالفته حرام لحق الله تعالَى ، ولأن الشارع لَم يَجعل طاعة الحاكم في مقابل عدله فلم يقل : إذا عدل فيكم فأطيعوه ، وإذا لم يعدل فلا تطيعوه . وإنما أمر بطاعته مطلقا بحسب الاستطاعة وفي غير معصية

والأحاديث الصحيحة الصريحة في هذا الأمر كثيرة ، ومنها أنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : يا نبي الله! أرأيت إن قامت علينا أمراء يسألونا حقهم ، ويَمنعونا حقنا فما تأمرنا؟ فقال صلى الله عليه وسلم : "اسمعوا وأطيعوا، فإنّما عليهم ما حُمِّلوا، وعليكم ما حُمِّلتم " رواه مسلم . يعني أنتم عليكم واجب السمع والطاعة في المعروف ، وهم عليهم واجب العدل ، وعلى كل واحد أن يؤدي ما عليه .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم :"خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ وَيُحِبُّونَكُمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيْكُمْ وَتُصَلُّونَ عَلَيْهِمْ وَشِرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ ". قِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ نُنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ؟ فَقَالَ " لاَ مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاَةَ . وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وُلاَتِكُمْ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ وَلاَ تَنْزِعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ ".

عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قلنا يا رسول الله: لا نسألك عن طاعة من اتقى، ولكن من فعل وفعل –فذكر الشر– فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "اتقوا الله واسمعوا وأطيعوا " رواه ابن أبي عاصم .

وجاء في صحيح مسلم قوله صلى الله عليه وسلم لحذيفة رضي الله عنه :"تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع "

فالشريعة تأمر بطاعة الإمام مادام مسلما ، وإن وقع منه ظلم وفسق تأمر بطاعته والصبر عليه مراعاة لمصلحة الأمة في اجتماعها على أمير . وليس هذا معناه أن الإسلام يقر الظلم والضيم والإهانة ولكن مراعاة للمصلحة الكبرى ودفعا للمفسدة الحاصلة بالخروج على الحاكم من إراقة الدماء وذهاب الأمن وحصول الفوضى .

إن الصبر على جور الأئمة أصل من أصول أهل السنة والجماعة. لا تكاد ترى مؤلفًا في السنة يخلو من تقرير هذا الأصل، والحض عليه. وهذا من محاسن الشريعة الغراء، وحكمة الشارع الشريف فإن الصبر على جور الأئمة وظلمهم ، مع كونه هو الواجب شرعًا ، فإنه أخف من ضرر الخروج عليهم ، ونزع الطاعة من أيديهم ، لما ينتج عن الخروج عليهم من المفاسد العظيمة ، فربما سبب الخروج حدوث فتنة يدوم أمدها ، ويستشري ضررها ، ويقع بسببها سفك للدماء ، وانتهاك للأعراض ، وسلب للأموال ، وغير ذلك من أضرار كثيرة، ومصائب جسيمة على البلاد والعباد .

قال الإمام ابن تيمية : " المشهور من مذهب أهل السنة أنهم لا يرون الخروج على الأئمة وقتالهم بالسيف وإن كان فيهم ظلم كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة المستفيضة عن النبي صلى الله عليه و سلم لأن الفساد في القتال والفتنة أعظم من الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة فيدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما . ولعله لا يكاد يُعرف طائفة خرجت على ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد ما هو أعظم من الفساد الذي أزالته " .

وقال أيضا :" فإن الله تعالى بعث رسوله صلى الله عليه و سلم بتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فإذا تولى خليفة من الخلفاء كيزيد وعبد الملك والمنصور وغيرهم فإما أن يقال يجب منعه من الولاية وقتاله حتى يولى غيره كما يفعله من يرى السيف فهذا رأى فاسد فإن مفسدة هذا أعظم من مصلحته . وقَلَّ من خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير " .

وقال ابن أبي العز الحنفي شارح العقيدة الطحاوية :"وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا، فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل في الصبر على جورهم تكفير السيئات، ومضاعفة الأجور، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد بالاستغفار والتوبة وإصلاح العمل، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٥]. وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:١٢٩]. فإذا أراد الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير فليتركوا الظلم " .

وجاء قوم إلى الإمام الحسن البصري أيام الفتنة فأمرهم أن يلزموا بيوتَهم، ويغلقوا عليهم أبوابَهم، ثم قال: والله لو أن الناس إذا ابتلوا من قِبَل سلطانِهم صبروا، ما لبثوا أن يرفع الله ﷻ ذلك عنهم، ولكنهم يفزعون إلى السيف، فيوكلون إليه، فوالله ما جاءوا بيوم خيرٍ قط، ثم تلا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧].

وقال الحسن –أيضًا–: "اعلم –عافاك الله– أن جور الملوك نقمة من نقم الله تعالى، ونقم الله لا تُلاقى بالسيوف، وإنَّما تتقى وتستدفع بالدعاء والتوبة، والإنابة والإقلاع عن الذنوب، إن نقم الله متى لُقِيَت بالسيف كانت هي أقطع".

القاعدة الثالثة : العدل والمساواة.

سبق الحديث عنها في "سمات النظام السياسي في الإسلام".

قواعد النظام السياسي الإسلامي

الشورى– الطاعة– العدل– الحرية

القاعدة الرابعة : الحرية .

الحرية من أهم مقومات الشخصية الإنسانية التي فطر الله الناس عليها، فبها يتميز الإنسان على سائر الحيوان، لقد جاء الإسلام ليضمن الحريات بِجميع أنواعها، ويحميها من العبث والإكراه وتعدي الآخرين.

حرية الدين والمعتقد:

أعلن الإسلام الحرية الدينية في الآية الصريحة الواضحة: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. ودخلت جيوش الإسلام معظم أقطار المعمورة بعد سنين من انبثاق فجره ، فلم يكرهوا أحدًا على الدخول في الدين الحق ، ولَم يمنعوا أحدًا من أهل الكتاب من ممارسة شعائرهم التعبدية ، أو ممارسة ما أباحه لهم دينهم من الأطعمة والأشربة التي يُحرمها الإسلام ، وعاشوا في ظل الدولة الإسلامية قرونًا طويلة آمنين مطمئنين متمتعين ببر الإسلام لهم وعدله وسماحته.

الحرية السياسية:

أفراد الأمة الإسلامية مكلفون بالدعوة إلى الإصلاح ، والأمر بالمعروف والنهي عن الفساد في الأرض ، وقد ورد في أحاديث كثيرة النصح للمسلمين عمومًا، وفي بعضها النصح لولاة أمورهم خصوصًا، فالنصيحة لأولياء الأمور وأرباب السياسة مِما شرعه الإسلام ، فينبغي على المسلم الناصح الأمين الذي لا غرض له ولا هوى، وإنَّما مراده مُجرد مرضاة الله والخير للأمة ، لا يشوب ذلك بغيره من أغراضه الدنيوية ومصالحه الشخصية ، إذا رأى رأيًا في السياسة يحقق المصلحة للأمة ، نصح به ولاة الأمر والمسؤولين، وبين لَهم وجهة نظره بالطريقة المشروعة ، برفق ولطف ، وفيما بينه وبينهم ؛ "فإن المؤمن يستر وينصح ، والفاجر يهتك ويعيِّر" كما قال الفضيل بن عياض ، "وكان السلف إذا أرادوا نصيحة أحد وعظوه سرًّا" حتى قال بعضهم: "من وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة ، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنَّما وبخه" . وأبلغ من ذلك قول النَّبِي صلى الله عليه وسلم :"من أراد أن ينصح لذي سلطان في أمر، فلا يبده علانية ، ولكن ليأخذ بيده، فيخلو به ، فإن قبل منه فذاك ، وإلا كان قد أدى الذي عليه له " رواه ابن أبي عاصم وصححه الألباني .

أما أن يُتخذ من المعارضة السياسية وسيلة لإثارة الرعاع ، وتَهييج العامة ، وإشعال الفتَن والثورات ، فليس من الإسلام في شيء . إن الخلاف في الآراء السياسية لابد أن يكون مضبوطًا بضوابط الشرع وأدب الخلاف حتَّى يكون مأمون العواقب ، حسن النتائج ، لصالح الأمة ، لا لدمارها وخراب ديارها.

حرية التفكير والرأي:

جاء الإسلام ليطلق العقل من إساره ويضع عنه الأغلال التي عطلته زمنًا طويلاً، فكثيرة هي الآيات التي تنتهي بقوله سبحانه: ﴿يَعْقِلُون﴾، ﴿يَتَفَكَّرُون﴾، ﴿يَتَدَبَرُون﴾، وليس في صحيح النصوص ما يعارض صريح العقول البشرية ، فلم يجيء في القرآن ولا في السنة حرف واحد يُخالف العقل ، وكان من ثَمرة هذه الحرية أن امتلأت المكتبات الإسلامية بالذخائر الثقافية المختلفة في شتَى العلوم والفنون .

حرية الرأي في الإسلام مقيدة بما لا يعارض الإسلام :

إن الإسلام الذي كفل حرية التفكير والرأي لا يأذن أن تكون هذه الحرية سبيلاً لتشكيك المسلمين في عقيدتِهم الحقة أو إضعاف أخلاقهم الكريمة بنشر الفاحشة والرذيلة وبث الشكوك والشبهات ، والمتتبع للتاريخ الإسلامي يرى بوضوح أن الخلفاء المسلمين كانوا يواجهون بكل حزم كل من تسول له نفسه أن ينال من الإسلام ، وليس هذا من قبيل التطوع ، بل من الواجبات اللازمة أن يَحفظ الحكام والمسؤولون الإسلام قرآنًا وسنة ، عقيدة وشريعة ، وأن يأخذوا على أيدي الذين يشيعون الفساد العَقَدي والأخلاقي والاجتماعي ، فالإسلام الذي كفل الحريات وضع لها ضوابط شرعية ، ويرى بعض القوم "أننا في عصر المركبات، وزمن الحريات، ومن التخلف –كما يزعمون– أن يبقى المسلمون منغلقين على ما كانوا عليه من عقائد وقيم وأخلاق، إذ لا مانع عندهم أن تنتشر كل وسائل الفساد الثقافي والسلوكي والاجتماعي؛ لأننا –كما يدعون– نعيش في عصر المدنيات ، ولا حرج عندهم كذلك أن يُدعى الناس في المجتمع المسلم إلى كل ضلالة فكرية وعقدية وثقافية ، لأننا –في زعمهم– نعيش في قرن العصرية والتحضر والانفتاح .

وفئة أخرى قد يصل بِها الافتراء والبهتان إلى حد القول: إن الإسلام عندما يضع ضوابط على حرية الإنسان السلوكية والفكرية إنَّما يكون بذلك هادمًا لكوامن الإبداع الموجودة عنده، ولكي يستطيع تفجير تلك الكوامن والقوى، لابد –كما يفترون– من هدم تلك الضوابط، وإعطاء الحرية للمسلم كما هو واقع الحال في الغرب.

- ويظن هؤلاء السذج أصحاب الأهواء أننا في ديار المسلمين عندما نَهدم تلك الضوابط التي أمرنا بِها الإسلام، ونَخرج على تلك الثوابت التي جاء بِها سيد الأنام مُحمَّد صلى الله عليه وسلم ، نستطيع وبلمح البصر أن نرسل مركبات فضائية تَجوب أجواء الفضاء، وأننا –نَحن العرب والمسلمين– وبلمح البصر كذلك سنبنِي مصانع لإنتاج طائرات الأشباح القاذفة التي لا تتصيدها الأجهزة التقنية مهما بلغت في تطورها وتفوقها، وأننا –نَحن العرب والمسلمين– وبلمح البصر أيضًا ستتحول بلادنا إلى ورش فنية وصناعية تنتج كل هذه الألوان من التقنيات العلمية في شتى المجالات الطبية والفلكية والهندسية وغيرها، وقد غاب عن هؤلاء أن سبب تَخلفنا التقنِي والعلمي هو أننا لَم نأخذ بالأسباب المادية التي تؤهلنا لأن نتقدم في هذا المجال، فضلاً على أن نتسلم الريادة من الآخرين، وغاب عنهم كذلك أن هناك أُمَمًا وثنية تفوقت على كثير من المجتمعات الغربية في الجانب التقني والعلمي، مع أنَّها لَم تزل محافظة على عقائدها الوثنية وقيمها وأخلاقها وعاداتِها المستمدة من تلك العقائد الوثنية، وما أمر اليابان عنا ببعيد، إننا بصفتنا مسلمين لو استجبنا إلى دعوات هؤلاء من أصحاب الأهواء لازداد ضياعنا، ولفقدنا الهوية الإسلامية التي جعلنا الله تعالَى بِها خير الأمم.